الرحمة في القرآن المجيد

الاستغفار إنموذجًا

إعداد:
د. محمّد الأمين محمّد سيلا[1]
عضو هيئة التدريس في كليّة الدّراسات الإسلاميّة
جامعة الأمير سونكلا في جنوب تايلاند (فرع فطاني)

---

(١) الجامعيّة من الجامعة الإسلاميّة بالمدينة النّبويّة، كلية الشّريعة.
الماجستير من الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، قسم الفقه وأصوله.
الدكتوراه من الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، قسم الفقه وأصوله.

المقدّمة

الحمد للّه رب العالمين، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وله الحمد والشكر أن اشتق اسمه من الرحمة، ولتكون اسمًا من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته العليا، وله المجد أن اصطفى آخر رسله، وجعله رحيمًا بأمّته جمعاء، وله المنة أن ملأ كتابه العزيز برحماته وغفرانه للذنوب، ولو أراد أذكى واحد في العالم أن يعدَّ رحمات اللّه، لنفد حبر قلمه، ولن يستطع إلى ذلك سبيلا، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل]. لقد أنعم اللّه الخالق البارئ على مخلوقاته بشتى أنواع: النعم ظاهرًا وباطنًا، اعترف بها من اعترف، وجحدها من جحد، ومنها: رحمة اللّه ﷻ على العباد بالاستغفار في كتابه العزيز، فليتأمل المتأمّل القارئ لكتاب اللّه ﷻ: أنه ﷻ قد ألهم كل أنبيائه ورسله طلب الاستغفار. والهدف من هذا البحث إبراز مفهوم الرحمة في القرآن العظيم، مع توضيح العلاقة المتينة بين الاستغفار والرحمة في كتاب اللّه المجيد، وأن الاستغفار أمر رباني وجهه إلى رسله، من أوّلهم إلى خاتمهم، عليهم السلام. وقد انتهج الباحث في تناول جزئيات هذه الورقة المنهج الاستقرائي والتحليلي، لسرد بعض النّصوص القرآنيّة المتعلقة بالعنوان، والنّصوص الأخرى الموضحة لها. ويتضح من البحث أن كثيرًا من الناس

مرضى بأنواع متعددة من الأمراض، ويقفون عاجزين عن علاجها، مع وجود علاج رباني معهم؛ ولكن كثيرًا من الناس لا يستشعرونه. وعليه، يتم تناول هذه الورقة في المطالب الآتية بإذن الله ﷻ.

* * *

المطلب الأوّل
التعريف بمصطلحات البحث

أولًا: تعريف الرّحمة لغةً واصطلاحًا:

أ. تعريف الرّحمة لغةً:

الرَّحْمنُ والرَّحِيمُ اسمان جليلان لله ﷻ، ومشتقان من الرحمة التي تدل في مألوف اللغة على الرقة، والشفقة، والرأفة، والعطف، وفي هذا يصرح ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: «يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رَقَّ له، وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى. والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحمًا من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يرحم ويرق له من ولد(١)». وفي هذا الصدد يقول جل شأنه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ [النساء:١].

والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج٢، ص٤٩٨؛ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط١، د. ت)، ج١٢، ص٢٣٠؛ محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د. ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ٢٦٧.

نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ [الأنعام].

ب. معنى الرّحمة اصطلاحًا:

لقد عرّف أهل العلم رحمهم الله الرّحمة بتعريفات عديدة، وبتعبيرات مختلفة، لكن المراد لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي عند التأمّل، ومن تلك التعريفات ما يلي:

التعريف الأوّل -تعريف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك⁽¹⁾».

التعريف الثاني -تعريف ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «رقة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه⁽²⁾» وهناك تعريفات أخرى لِلَفظ الرحمة؛ لكن المضمون واحد، وإن اختلف التعبير.

يلاحظ على هذه التعريفات السابقة الذكر ما يلي:

أولا: يشير تعريف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تعريف الرحمة في حق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نوعًا ما، بدليل أن ابن القيم يضرب مثالًا على رحمة الله للعبد: «ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به؛ ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه ولا يعلم إحسانه

---

(١) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد الفقي، (بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م). ج٢٦، ص٢١.

إليه بابتلائه وامتحانه(١)». وكما يفهم أن ابن القيم يقصد رحمة الإنسان أيضًا في هذا التعريف؛ لكن يلاحظ أن التعريف يرتكز أكثر على رحمة البشر بعضهم ببعض، ومن ذلك قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم، والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره(٢)».

ثانيًا: يفهم من تعريف ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أراد بهذا التعريف، تعريف الرحمة في حق الآدميين، وليس تعريف الرحمة في حق اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرحم ويتفضل على الإنسان بنعم كثيرة دون أن يتعدى عليه أحدٌ. واللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بالصواب.

ويستخلص من هذه التعريفات: أن العلماء رحمهم اللّه ركّزوا على تعريف رحمة الإنسان، ولعله يمكن أن يُلتمس لهم العذر، بأن تعريف رحمة اللّه كان معروفًا لديهم بالسليقة، فلم يحتاجوا إلى تعريفها. واللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

وعلى ضوء ما سبق: أرى أن تُعرف رحمة اللّه: بأنها صفة من صفات اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يوصل بها المنافع والمصالح وجميع أنواع الخيرات إلى مخلوقاته.

ومن أنواع رحمة اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإنسان: مغفرته للعبد المذنب، وقبول توبة التائب بعد ارتكابه أنواع كثيرة من المعاصي، وقبول إسلام الكافر بعد مدة طويلة في تمرّده وكفره باللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: رحمة الأم بولدها، والأب بولده، والدابة بولدها كذلك.

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفاء من مصائد الشيطان، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ج٢، ص٢٧٤.

ثانيًا: تعريف الاستغفار لغة واصطلاحًا:

أ. تعريف الاستغفار لغةً:

كلمة الغفر والمغفرة لها معان عدة عند أهل اللسان؛ لكن المعنى الذي يعنيني هنا، ويتناسب مع موضوع الورقة، هو أن الغفر أو المغفرة أو الغفران: بمعنى التغطية والستر على الذنوب، والعفو عنها، يقال: غفر اللّه ذنوبه، أي سترها.

ومن الأدعية المشروعة بعد قضاء الحاجة: ”غفرانك(١)“. بمعنى أطلب الغفران من اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فإن اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يسر قضاء الحاجة للإنسان، فحُق له أن يطلب منه الغفران والستر؛ لأن من قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعذب الإنسان حتى عند قضاء الحاجة، وكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سهّلَ ويسَّر له ذلك، فهو رحمة من اللّه، ولطف منه بالإنسان. ويقال: ”غفر الشيب بالخضاب أي غطاه بالخضاب“. وقال ابن سِيدَه: ”غفرَ المتاعَ في الوعاء يغفِرُه غَفْرًا: إذا أدخله فيه، وستره، وأوعاه(٢)“.

والغفران والمغفرة من اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يصونَ العبدَ من أن يمسّه العذابُ(٣). وصون اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد من العذاب، رحمة وفضلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأنشد سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ:

استغفـر اللّه ذنبًا لسـت مُحصيَه   رَب العبـادِ إليه القولُ والعملُ(٤).

---

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبدالله، صحيح البخاري، باب آمن الرسول بما أنزل إليه، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ”إِصْرًا عَهْدًا وَيُقَالُ غُفْرَانَكَ مَغْفِرَتَكَ فَاغْفِرْ لَنَا“، ج١٥، ص٥٤؛ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٢٥٩٦٤، ج٥٥، ص٧٣.

(٢) إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط ج١، ص٦٥٦. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِصْرًا عَهْدًا. وَيُقَالُ: غُفْرَانَكَ مَغْفِرَتَكَ فَاغْفِرْ لَنَا

(٣) محمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الحسيني الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (دار الهداية، د. ط، د. ت)، ج١٣، ص٢٤٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، م٥، ص ٢٦.

في ظل من عنت الوجوه له   ملك الملوك ومالك الغفر(١).

ب. الاستغفار اصطلاحًا:

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير المغفرة بأن: «الغفران» و«المغفرة»، الستر من الله على ذنوب من غفر له، وصفحه له عن هتك ستره بها في الدنيا والآخرة، وعفوه عن العقوبة عليه(٢)».

الملحوظ من تعريف أبي جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تعريف المغفرة في اللغة العربية وفي الاصطلاح لا يختلفان. والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستغفار إذا ذكر مفردًا يراد به التوبة مع طلب المغفرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، والسّتر لازم لهذا المعنى(٣)».

يفهم من نص الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن الاستغفار والتوبة إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. وعليه، فإن محو الذنوب وحتى أثره يزال عن العبد المذنب، وإضافة إلى وقاية الله من الشرائر، فهذا من أعلى الرحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإنسان.

لطيفة من كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «وإزالة أثره»، يُفهم من هذا بأن أثر الذنوب قد يكون سببًا مانعًا وحاجبًا من الحصول على خيري الدنيا والآخرة للإنسان المذنب، فإزالة آثار الذنوب عن الإنسان عين الرحمة على الإنسان.

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٣٨٥.

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج٦، ص١٢٨.

(٣) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ج١، ص٣٠٧؛ عبدالمنعم محمود، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، (دار الفضيلة دون مكان النشر، والتاريخ)، ج١، ص١٥١.

المغفرة: هي أن يستر القادر القبيح الصادر ممَنْ تحت قدرته. لذا إذا ستر العبد عيبَ سيده مخافة عتابه، لا يقال: غفر له، بل ستر سيده(١).

ولما كان اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرًا على أن يستر الذنوب عن المذنب مع جلالة قدرته على عقابه وعذابه والانتقام منه، فإن ذلك الأمر يُعدُّ رحمة جليلة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإنسان المذنب.

* * *

---

(١) السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م)، ص٢٨٦.

المطلب الثّاني
استغفار الأنبياء والرسل عليهم السلام

بمشيئة اللّه سبحانه وتعالى سأقوم في هذا المطلب، بعرض استغفار الأنبياء والمرسلين والتعليق عليها، حسب ورود أسمائهم عليهم السلام في القرآن العظيم، وبحسب ترتيب المصحف العثماني، وكذلك سأبذل قصارى جهدي: أن أذكر الأنبياء والرسل مرتبًا حسب النّبوة والرسالة قدر الإمكان والاستطاعة. وذلك على النّحو الآتي:

أولًا: استغفار النّبي آدم أبي البشر عليه السلام:

فإن اللّه سبحانه وتعالى خلق أبانا آدم، وخلق منه زوجه -حواء- عليهما السلام، وأسكنهما الجنة، ووعدهما الخلود فيها، ونهاهما وحذرهما من الأكل من الشجرة؛ لكنَّ قدَّرَ اللّه أن يُوسوس لهما الشيطان، فأكلا من تلك الشجرة، فاعتبر ذلك الأكل معصيةً للّه سبحانه وتعالى، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، وبعد ما تَيقّنَ آدم عليه السلام من مخالفة أمر بارئه، وبدا عليه أثرُ معصية خالقه، فزع إلى طلب المغفرة والتوبة من اللّه سبحانه وتعالى. وفي ذلك يقول اللّه تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة](١). ولَمّا تأكّد آدم عليه السلام بأن تناول تلك الشجرة كان معصيةً للّه سبحانه وتعالى زاد خوفًا ووقوع الخسارة عليهما، بدليل حكاية اللّه سبحانه وتعالى عن نبيّه آدم وزوجته -حواء- عليهما السلام. قال اللّه

---

(١) لعلماء التفسير كلام مفصل حول تلك الكلمات، التي قالها آدم عليه السلام، لكن المقام قد لا يتسع لسردها، وحتى لا أخرج عن لب الموضوع.

تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣]. ويدعم أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا بتفسيره قائلا: «وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعترافِهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة(١)». وقال محمّد بن كعب: «عملتُ سوءًا، وظلمتُ نفسي، فارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم(٢)». يعني قال آدم أبو البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الدعاء.

واستحضر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قول الله ووعده للعباد، وتيقّنَ آدم بأن الله تعالى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢]، وأن من عمل عملًا سيئًا، ثم تاب منه واستغفر الله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يغفر له، فلهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء]. فعلم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه قد عمل خطيئة، وظلم نفسه، ثم تذكر رحمة الله ومغفرته ففزع إلى طلب المغفرة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكانت نهاية الأمر لِمَا وقع لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الهبوط إلى الأرض(٣)؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة:٣٦].

اعترف آدم وزوجه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بالعصيان، وعرفا أن أثر المعصية قد عاد عليهما، حيث بدت عورة كل واحد منهما للآخر، وعسُرَ عليهما مشقة إيجاد ما يستر عوراتهما، وعند ذلك جزما بأنهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما؛ ولهذا استسلما استرحامًا واستغفارًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٤).

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٢، ص٣٥٧.

(٢) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ج١، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٩٩. يعنى أمر الله عَزَّ وَجَلَّ أن يهبط آدم، وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وإبليس، والحية إلى الأرض.

(٤) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص٥٢.

يستخلص فيما دار بين آدم ﷷ وخالقه ﷾، من أكل الشجرة بسبب وسوسة الشيطان لهما -هو وزوجه-، بعد نهي اللّه لهما عن الاقتراب إلى تلك الشجرة، وبعد أن شعرَ آدم وزوجه من مخالفة اللّه وعدم طاعته، هرولا إلى طلب الاستغفار والرحمة من اللّه ﷾، فهذا يُعلم أبناء آدم ﷷ، أنه على الإنسان والعبدالمذنب أن يُسرع إلى طلب مغفرة اللّه ورحمته، بعد ارتكاب ذنب من الذنوب. وأيضًا، هذا يدل على عِظم الاستغفار؛ لأنه يجعل الإنسان يستشعر بالعبودية أكثر فأكثر، ويرجو رحمة اللّه ﷾ بعد الاستغفار من الذنوب. واللّه ﷾ أعلم وأحكم.

ثانيًا: استغفار النّبي نوح ﷷ:

النبي نوح ﷷ دعا أمته ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت]، ولما كذّبوه، ولم يتبعوا أمره، فأعقم اللّه نساءهم أربعين سنة، وأهلك كلَّ ما عندهم؛ لكن لم يقنط النّبي نوح ﷷ من رحمة ربّه، بل طلب من قومه أن يستغفروا ربهم، لأنَّه كان غفّارًا، وسيمدّهم بأموال وبنين، وفي هذا يحكي الإمام القرطبي، عن مقاتل: لما كذّب قوم نوح زمانًا طويلًا حبس اللّه عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا إلى نوح ﷷ، واستغاثوا به فقال لهم نوح ﷷ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح:١٠]. ويستأنس بتوجيه وإرشاد الحسن البصري ؓ للذين اشتكوا إليه. اشتكى أربعة رجال إلى الحسن البصري. الأول: من الجدوبة أو القحط، أي قلة إنزال المطار، والثاني: من الفقر، والثالث: من الولد، أي أن يرزقه اللّه ولدًا، والرابع: من جفاف البستان. فقال الحسن البصري لكل واحد منهم: أن يستغفر ربّه، وتعجبوا من إجابة الحسن البصري ؒ، فقال لهم الحسن:

ما قلت من عندي شيئًا، وقد قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ [نوح].

محل الشاهد: أن نوحًا عليه السلام يعلم مع يقينه السابق أن الاستغفار سبب لرفع القحط والجدب، وسبب مجيء الولد، ونجاح المواشي؛ لذا لجأ نوح وأَمرَ قومه بطلب الاستغفار من الله سبحانه وتعالى؛ لأن بالاستغفار يحل كل المشكلات الأخرويّة، فضلًا عن الحوائج الدنيويّة. ولا أعتقد أن هناك من ينكر أن الولد، أو المطر، ونمو المواشي ليس من ضمن الرحمة(١).

وفي هذا الصدد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾: أي إذا تبتم واستغفرتموه كثر الرزق عليكم، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد(٢).

ويُفهم من هذا أن الاستغفار مفتاح السعادة، وعلاج لكل شيء، يصيب العبد في هذه الدنيا، من قحط المطر، وقلة الرزق، والعقم. ويُفهم من ذلك أيضًا، أنه إذا توفّرت هذه الأشياء لأي إنسان في الدنيا، فإنّه في أتم الرحمة من الله سبحانه وتعالى؛ لذلك لم يقل نوح عليه السلام شيئًا آخر لقومه إلا طلب الاستغفار؛ ولأن الذنوب حاجز قوي بين العبد وبين آماله، وإذا رُفع ذلك المانع يرحم ذلك الإنسان بشتى أنواع الرحمة في هذه الحياة الدانية قبل الآخرة الباقية.

ولما يئس نوح عليه السلام من قومه، أَمرهُ الله أن يصنع الفلك، وكان قومه إذا مرُّوا به استهزأوا به، وسخروا منه؛ لكن مع ذلك كلّه بعد قيام نوح عليه السلام بصنع الفلك طلب من قومه الركوب فيها؛ لكن لعنادهم أبوا الركوب، ففي

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص٥٠٤.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣١٤، وما بعدها بتصرف.

هذا المقام استشعر نوح عليه السلام رحمة اللّه وغفرانه للعصاة؛ فلهذا قال اللّه حاكيًا عن نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود]. فناسب المقام ذكر غفران اللّه ورحمته بالعباد؛ لأنه قادر أن يهلكهم جميعًا بسبب عصيانهم للنبي نوح عليه السلام.

لطيفة في الآية الكريمة: إن اللّه سبحانه وتعالى عبَّرَ عن نون التّوكيد ولام القسم في هذه الآية، وهذان يدلان على دوام مغفرة اللّه ورحمته بالعباد، وتأكد وقوعهما من اللّه سبحانه وتعالى⁽¹⁾.

ثالثًا: استغفار النّبي هود عليه السلام:

النّبي هود عليه السلام دعا قومه إلى إفراد اللّه سبحانه وتعالى بالعبادة؛ لكن قومه لم يستمعوا له، بل عصوه، واتبعوا أهواءهم، ولما رأى النّبي هود عليه السلام من قومه كثرة المعصية، طلب منهم أن يستغفروا خالقهم، وفي هذا يقول اللّه تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

قال أبو جعفر رحمه الله: «الاستغفار هو الإيمان باللّه في هذا الموضع؛ لأن هودًا عليه السلام إنما دعا قومه إلى توحيد اللّه، ليغفر لهم ذنوبهم⁽²⁾» ولا تعارض بين تفسير الطبري رحمه الله للآية، وبين موضوع هذه الورقة؛ لأن الإنسان إذا آمن بربّه ووقر الإيمان في قلبه، فمن ثَمَّ يستغفر ربّه إذا أذْنَبَ، أو خالف أوامر اللّه. وأيضًا، لا يصدر الاستغفار إلا من المؤمنين أو المؤمنات، ويكون الاستغفار سببًا شرعيًا لحصول خيري الدنيا والآخرة.

وكأن اللّه سبحانه وتعالى يقول لقومه: إن آمنتم باللّه، وتبتم من كفركم، أُرسل لكم

---

(١) هذا فهمي للآية الكريمة، ولم أرجع إلى أي مرجع أو مصدر في ذلك؛ لذلك لم أشر إلى أي مرجع، ومن دأبي إذا نقلتُ نصًّا أو تصرفت في النّص أن أشير إلى المصدر؛ لكن إذا لم أشر إلى أي شيء معناه أن ذلك الكلام من كلامي أو تعليقي على الآية.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج١٣، ص ٣٥٨.

قطر السّماء في وقت حاجتكم إليه، وأحيي بلادكم من الجدب والقحط، وأرزقُكم بالمال والولد⁽¹⁾. وهذه رحمات اللّه للعبد، وخاصة العبدالمحتاج إلى هذه الأشياء، وأحق الناس بتقدير هذه النعم -نعمة المطر-هم الفلاحون؛ لكن قوم هود عليه السلام جحدوه، وأصرّوا على عبادة آلهتهم، التي كانوا يعبدونها، ولما وقع أمر اللّه -عذاب اللّه- بقوم هود، أهلكهم اللّه جميعًا، إلا النّبي هودًا والمؤمنين به، وذلك برحمة من اللّه سبحانه وتعالى.

محل الاستشهاد: أن هودًا عليه السلام عرف قيمة الاستغفار ومنزلته عند اللّه سبحانه وتعالى؛ لذلك لم يطلب من قومه إلا الاستغفار، وأن الاستغفار سبب لحصول جميع أنواع الرحمة في الدنيا والآخرة.

وأمر نبي اللّه هود عليه السلام قومه: «بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السّالفة، وبالتّوبة عمّا يستقبلون من الأعمال، ومن اتصف بهذه الصفة يسر اللّه عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته⁽²⁾».

ويقول الإمام البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة إن اللّه سبحانه وتعالى: «حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل اللّه عليكم المطر، فتزدادون مالًا، ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة البدن⁽³⁾». كلام نفيس ووجيه، عرف النّبي هود عليه السلام أن هذه النّعم والرحمة تحصل بسبب الاستغفار؛ فلذلك أمر قومه بالاستغفار. واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

يستخلص ممّا سبق أن النّبي هودًا عليه السلام، استأنف الحوار مع قومه

---

(١) ينظر: المصدر نفسه.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٤، ص٣٢٩.

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م)، ج٤، ص١٨٣؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٥١.

بطلب الاستغفار، وعرف هود أن الاستغفار سبب للحصول على الغيث، والأولاد، والقوة؛ لأن قومه كانوا بحاجة ماسّة إلى هذه الأشياء، فأمرهم هود عليه السلام بالسبب، ولما لم يطيعوه وقع بهم ما أراده الله سبحانه وتعالى، ثم نجا الله سبحانه وتعالى النّبي هودًا ومن كان معه من المؤمنين برحمة ونعمة منه سبحانه وتعالى.

رابعًا: استغفار النّبي صالح عليه السلام:

عطف الله سبحانه وتعالى الأمر نفسه من النّبي نوح وهود إلى النّبي صالح عليه السلام، وهو الأمر بتوحيد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، فكأن ما حصل لنوح وهود حصل ذلك الشيء نفسه للنبي صالح عليه السلام. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى مخبرًا عن نبيّه صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود]؛ لكن قوم صالح عليه السلام كذبوه، وأخذوا يمنُّون عليه، واستمروا على ما هم عليه من المعاصي وعبادة الطاغوت، حتى نزل بساحتهم عذاب الله، عند ذلك نجا الله النّبي صالحًا والمؤمنين به، برحمة من الله سبحانه وتعالى، وفي هذا يقول الله في نهاية قصة صالح: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٦٦].

وأخذ صالح عليه السلام ينصح قومه، ويذكّرهم بعذاب الله سبحانه وتعالى، ثم وضَّحَ لهم بأن الاستمرار على المعاصي استعجالٌ بالسيئة، وأن السيئة مآلها إلى عذاب الله، وأن الحسنة والرحمة تحصلان للإنسان بسبب الاستغفار، لذلك قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل:٤٦].

يستخلص من هذا أن النّبي صالحًا عليه السلام، أمر أُمّته بتوحيد الله، والاستغفار، وأكّد لهم بأن الله قريب ومجيب دعوة المضطر إذا دعاه، كما قال الله في البقرة: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]،

ثم ربط النّبي صالح عليه السلام، الاستغفار بالحسنة والرحمة، فهذا يوحي إلى أهميّة الاستغفار في قلوب هؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

خامسًا: استغفار النّبي إبراهيم عليه السلام:

كان خليل الله إبرهيم عليه السلام، حليمًا، ورحيمًا؛ وحريصًا على إيمان أبيه بالواحد الأحد الصمد. وقد بيّنَ الله سبحانه وتعالى أنه لا يجوز لأَيّ نبيٍّ من الأنبياء أن يستغفر للمشرك. وقبل أن يقول قائل بأن نبي الله إبراهيم قد استغفر لأبيه مع نهي الله عن ذلك، بيّنَ الله سبحانه وتعالى سببَ استغفار إبراهيم لأبيه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

لقد أمر جل شأنه التأسي بالأنبياء والرسل عليهم السلام. لكن لما كان الاستغفار غير لائق لغير المسلم، استثناه الله من التّأسي بنبيّه إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث قال الله مخبرًا عن خليله إبراهيم: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤].

يفهم من هذه الآيات العظيمة، بأن خليل الله إبراهيم عليه السلام كان حريصًا على إيمان أبيه؛ لذلك لم يعد أباه بأي شيء أعظم عنده من الاستغفار. وأيضًا، استخدام لام القسم ونون التوكيد في الآية دليل على التزام وحث إبراهيم على الاستغفار لأبيه. ويفهم أيضًا أن الأنبياء والرسل كانوا واقفين عند حدود الله سبحانه وتعالى؛ فلذلك لما بيّنَ الله لخليله إبراهيم عدم جواز الاستغفار لغير المسلم، ترك الاستغفار لأبيه طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى. وبتعبير آخر: إن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه قبل نهيه عنه، أو قبل نسخ الاستغفار للمشرك، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى حاكيًا عن خليله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم]. وبعد نهيه عن الاستغفار، غيّرَ الضمير، حيث ورد في أمل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء]. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

يستخلص من موقف خليل اللّه إبراهيم عليه السلام هاهنا أنّه وعد أباه بالاستغفار، وهذا يدل على مكانة الاستغفار عنده، وأن الوعد يجب الوفاء به(١)، وأن الأنبياء والمرسلين والصالحين كانوا يقفون عند حدود اللّه، وأنه يجب على كل مسلم أن يقدم أوامر اللّه على أمر أي واحد، وخاصةً إذا خالف أمر المخلوق أمر اللّه سبحانه وتعالى، فهذا من باب التأسي بالأنبياء عليهم السلام.

سادسًا: استغفار النّبي يعقوب عليه السلام:

النّبي يعقوب عليه السلام، كان يحب يوسف عليه السلام حبًّا جمًّا، حتى لم يكن بوّده عليه السلام أن يبتعد عنه يوسف عليه السلام، ولما لاحظ إخوة يوسف ذلك طلبوا من أبيهم أن يخرج معهم يوسف، فلم يرحب يعقوب بالطلب؛ لكن لما ألحوا عليه ووعدوه بوعد وثيق، سمح لهم يعقوب أن يخرج معهم يوسف، ليرتع ويلعب على حد قولهم، فحصل ما أشار إليه يعقوب عليه السلام قبل أن يغادروا. ومع ذلك كلّه لم يقنط يعقوب من رحمة اللّه سبحانه وتعالى، وإنما صبر على فقد يوسف عليه السلام، وبعد تحقق كل ما أخبر به يعقوب، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦] مزيدة للتأكد، اعترفوا بذنوبهم وخطئهم، وعندئذٍ، سألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من اللّه سبحانه وتعالى. ووعدهم بالاستغفار في المستقبل. وهذا يدل على أن يعقوب كان يلازم الاستغفار(٢)، ويُفهم من هذا أيضًا أن أبناء يعقوب عرفوا منه أنه يستغفر اللّه دائمًا. وفي هذا يخبرنا اللّه عن طلب إخوة يوسف الاستغفارَ من أبيهم قائلا جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف].

الواقعة أو القصة واضحة للجميع ومعروفة؛ لكن محل الاستشهاد

---

(١) عندي بحث خاص في موضوع «الوفاء بالوعد»، فناقشت فيه آراء الفقهاء المتقدمين والعلماء المعاصرين. وتمت موافقة مجلة وحدة الأمة في الهند على نشر هذا البحث، وقريبًا سينشر بإذن اللّه سبحانه وتعالى.

(٢) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص١١٧.

هاهنا أن إخوة يوسف لم يطلبوا شيئًا آخر من أبيهم بعد اقتراف هذه الجريمة إلا الاستغفار. ومن ناحية أخرى، فإن يعقوب عليه السلام وافق على الطلب، هذا يشعرنا بأن الاستغفار كان شيئًا عظيمًا في قلوب الأنبياء والمرسلين. وأيضًا، أكّد يعقوب عليه السلام لأبنائه بعد ارتكاب هذه الخطيئة، بأن اللّه سبحانه وتعالى يغفر الذنوب مع تعمد الإنسان على الذنب، ويرحم العباد؛ لأن يعقوب عليه السلام نبّه أبناءه قبل خروجهم بيوسف عليه السلام.

يستخلص من موقف يعقوب مع الاستغفار، أنه عليه السلام كان ملازمًا للاستغفار، قبل أن يحصل ما حصل بين أبنائه، وكذلك يفهم من هذا الدرس ثقة أبنائه به -يعقوب- حيث إنهم سألوا أباهم أن يستغفر اللّه لهم. وأيضًا، على من أخطأ في حق أي شخص أن يتحلل منه، كما أن يعقوب وعدهم بالاستغفار من اللّه سبحانه وتعالى. حتى ورد بأن يعقوب عليه السلام أخَّر الدعاء إلى وقت السحر، أو سحر ليلة الجمعة؛ لأن ذلك الوقت أقرب للإجابة، أو أنه أخر الدعاء ليوافق ليلة عاشوراء(١).

لقد نص الإمام البغوي رحمه الله على دعاء يعقوب عليه السلام: «فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسّحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى اللّه سبحانه وتعالى، وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف، وقلة صبري عنه، واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى اللّه سبحانه وتعالى إليه أني قد غفرتُ لك ولهم أجمعين(٢)».

سابعًا: استغفار النّبي يوسف عليه السلام:

قد واجه النّبي يوسف عليه السلام، ابتلاءات كثيرة في حياته، وذلك بقدر اللّه

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٦، ص٢٦١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٢٦٢؛ البغوي، معالم التنزيل، ج٤، ص٢٧٧؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٤٩؛ عبدالرحمن بن ناصر ابن عبدالله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٤٠٥.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، ج٤، ص٢٧٧.

وقضائه عليه من إخوته ومن امرأة العزيز، ولقد حصل ما حصل بينه وبينها، لكن الله سبحانه وتعالى عصمه، ثم برأه من كيدها ومن كانت معها من النسوة، وعلى الرغم من ذلك كلّه تواضع يوسف، ورجا رحمة الله وغفرانه، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى مخبرًا عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف]. وأمر الله سبحانه وتعالى امرأة الملك أن تستغفر الله سبحانه وتعالى من الذنب الذي ارتكبته، كما أنه سبحانه وتعالى أمر يوسف ألا يتابع هذه القضية وأن يعرض عنها، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف]. وابتلاء يوسف من قبَلِ إخوته واضح في السورة نفسها، ومكّنَ الله ليوسف في الأرض بعد إهانته من إخوته، وصار ذا مكان عالٍ عند الملك، وأقرب الناس إليه، بل أصبح هو أمين خزائن الملك، وهذا تحقيق لما رآه في المنام. وإخوته الذين أهانوه ورموه في قعر الجب، هم الذين تذللوا عنده، ليجدوا قوت يومهم، ولما أخبرهم يوسف بما جرى بينه وبينهم، استحيوا واعترفوا بذنبهم وخطيئتهم؛ لكن مع ذلك كلّه لم يمنّ يوسف عليه السلام، بل طمّنَهم وآمل لهم مغفرة الله ورحمته بهم. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى مخبرًا عن تسلية يوسف لأخوته: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف]. كأن يوسف عليه السلام يقول لا لومَ عليكم، فالذي حصل بيننا كان من قدر الله وقضائه، وسيغفر الله لكم ما حصل منكم.

يلاحظ في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة الملك، ومع إخوته كذلك، أن مدار الأمر ونهايته هو طلب الاستغفار من الله سبحانه وتعالى، فإن الله جل جلاله أمَرَ امرأة الملك أن تطلب المغفرةَ من الله سبحانه وتعالى من الذنب الذي اقترفته، فهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أهمية الاستغفار ومكانته عند الله الخالق البارئ الغفار. ومن جهة أخرى، فإن يوسف عليه السلام عندما فتنته المرأة لعله وقع في ذنب(١)

---

(١) ظاهر هذه الآية الكريمة، قد يفهم منه أن يوسف عليه السلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي =

فحُق له أن يستغفر الله من ذلك؛ فلذلك حكى الله عن يوسف عليه السلام قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾(١)، فهذه الآية الكريمة دليل جلي على أن يوسف عليه السلام رجا مغفرة الله ورحمته لنفسه أولًا ولغيره ثانيًا. وأيضًا، لم يوبخ يوسف إخوته على فعلهم، وإنما هدأهم وذكَّرهم بمغفرة الله لهم ورحمته بهم، وفعلًا حصل ما تمنَّى لهم يوسف عليه السلام؛ حيث إنهم سألوا أباهم أن يطلب المغفرة لهم من الله سبحانه وتعالى، ووفَّى أبوهم -يعقوب عليه السلام- بالوعد.

يخلص من موقف يوسف عليه السلام مع الاستغفار ثلاث وقفات. الوقفة الأولى: إنه عليه السلام تمنَّى مغفرة الله لنفسه، بعد عصمة الله له من كيد النّسوة. والوقفة الثّانية: أَمر الله سبحانه وتعالى امرأة الملك العزيز أن تطلب المغفرة منه سبحانه وتعالى، والوقفة الثالثة: بعد الصنع الذي صنعه إخوة يوسف رجوا مغفرة الله لهم ورحمته سبحانه وتعالى بهم. والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

ثامنًا: استغفار النّبي شعيب عليه السلام:

دعا النّبي شعيب عليه السلام، قومه إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، كالأنبياء من قبله

= به منه؛ ولكن القرآن العظيم بَيَّنَ براءته عليه السلام. ينظر: عبدالرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ج٨، ص٣٢٦؛ الشنقيطي، أضواء البيان، ج٢، ص٢٠٥.

(١) ملاحظة: لقد اختلف أهل العلم رحمهم الله في سياق هذه الآية الكريمة، إلى القسمين: الفريق الأوّل: رحمهم الله قالوا: إن القائل هو يوسف عليه السلام ليبرأ نفسه أمام العزيز. ينظر: الطبري، جامع البيان، لقد أورد الطبري رحمه الله أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع، لدعم القول بأن هذا من كلام يوسف عليه السلام، ج١٦، ص١٤٢؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ذكر القولين كذلك؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ذكر كذلك القولين، لكن يبدو أنه يرجح أن هذا الكلام هو كلام امرأة العزيز، ج٤، ص٣٩٥؛ محمد رشيد رضا، مجلة المنار، ج٣٤، ص٣٣.
وقال الفريق الآخر: هذا كلام امرأة العزيز، لتبرأ نفسها عند زوجها أن يوسف عليه السلام استعصم، ولم يقع ما أرادت هي منه. ينظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٤، ص٢٣١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ذكر القولين فيه، ج٩، ص٢٠٩؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ورجح عنده أنه كلام امرأة العزيز، ج٤، ص٣٩٥؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، ج٥، ص٢٦٣؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ترجح عنده أنه كلام امرأة العزيز، ج١٢، ص٧٠.؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٤٠٠.

عليه السلام، ثم حذرهم من خطورة نقصان الكيل والوزن؛ لكن قومه كذّبوه وأصرّوا على عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها هم وآباؤهم من قبل نبوته عليه السلام، واعتقدوا أن لهم خيارًا وحقًّا أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون. ثم نبّههم شعيب عليه السلام بما أصاب أُممًا قبلهم، مثل: قوم نوح، وقوم هود، نتيجةَ تكذيب نبيّهم. وبعد كل هذه التمهيدات سأل شعيب عليه السلام أمته أن يتوبوا إليه توبةً نصوحًا ثم يستغفروا اللّه من ذنوبهم وعصيانهم له؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى متّصف بالرحمة والمغفرة. وفي هذا يقول اللّه سبحانه وتعالى مخبرًا عن طلب استغفار شعيب لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود]، ولما بلَّغ شعيب رسالة ربّه سبحانه وتعالى، وأدّى الأمانة، فلم يستجب له قومه حتى يئس منهم. وعند ذلك وقع عذاب اللّه عليهم؛ لكن اللّه سبحانه وتعالى بعدله وإنصافه نجى شعيبًا وكل من آمنَ برسالته. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ [هود].

يُستخلصُ من موقف شعيب عليه السلام مع قومه، أنَّه قام بمهمَّته تجاه قومه من الأوامر، مثل: الاستغفار والتّوبة. والنّواهي مثل: تطفيف الكيل والميزان، والبخس فيهما بالغش والنّقصان، ثم نَبّههم لِما حصل للأُمم قبلهم، لَما عَصوا رُسلهم، وذلك ليتدبروا ويعتبروا؛ لأن العاقل مَن يتعظ بغيره، لكنهم لم يفقهوا هدف شعيب عليه السلام، حتى جاءهم عقاب اللّه فأهلكهم اللّه سبحانه وتعالى، ونجا شعيبًا عليه السلام والمؤمنين معه.

تاسعًا: استغفار النّبي موسى عليه السلام:

سأل نبي اللّه موسى عليه السلام ربّه المغفرة عدة مرات لنفسه ولغيره، فقد سأل المغفرة لنفسه ولأخيه هاورن، لما رجع من مناجاة اللّه سبحانه وتعالى، ووجد أن السّامري قد أضل قومه من بعده، وفي هذا يقول اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ

ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف]. وأيضًا، عندما اختار موسى سبعين رجلًا لميقات ربّه، ثم وقع عليهم عذاب الله عندئذٍ تضرع موسى إلى الله سبحانه وتعالى، ودعاه ألا يهلكهم بفعل غيرهم، ثم أردف ذلك بطلب المغفرة من الله. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف].

وأيضًا، لما استغاث موسى عليه السلام رجل من شيعته على عدوّهما، فأراد موسى نصرته، وقدّر الله أن قتل موسى عدوهما بغير قصد منه، ثم نَدم على هذا الفعل ندمًا كبيرًا. وعنده، اعترف موسى الكليم عليه السلام بظلم نفسه، ثم أعقبه بطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، وفيه يخبرنا الله سبحانه وتعالى عنه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص]. وهذا، في غاية الاعتراف بالخطإ، ثم سأل موسى مغفرة الله ورحمته؛ لأنه سبحانه وتعالى قد اتصف بالغفران والرحمة.

وفي موضع آخر، أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بالصبر والمغفرة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ [غافر]. ويلاحظ هنا، أن هذا الأمر بالاستغفار هو أمر من الله سبحانه وتعالى لكليمه موسى عليه السلام، والأمر يقتضي الوجوب.

وخلاصة القول في استغفار النّبي موسى عليه السلام، أنه استغفر اللّه سبحانه وتعالى لنفسه خاصة عندما قتل نفسًا، ولنفسه ولأخيه هارون عليهما السلام حينما رجع من ميقات ربّه، وقد أضل السامري قومه من بعده، كما أنه عليه السلام طلب استغفار اللّه سبحانه وتعالى لنفسه ولقومه، لما أوشك بهم عذاب اللّه، وكذلك أمره اللّه سبحانه وتعالى بالصبر على آداء قومه، وطلب المغفرة من اللّه سبحانه وتعالى.

عاشرًا: استغفار النّبي داود عليه السلام:

لما خص اللّه حكمَ سليمان بالثناء ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩]، دون حكم داود استشعر داود، وتيقّنَ أنه قد ظلم نفسه، فاستغفر اللّه ثم وقع راكعًا للّه سبحانه وتعالى، فغفر اللّه له ذلك الخطأ(١) وفي هذا الصدد يقول اللّه سبحانه وتعالى عن النبي دواد عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص].

يتأسى بنبي اللّه داود عليه السلام، أن الإنسان إذا أصاب ذنبًا، عليه أن يتوضأ ويتقرب إلى ربّه بصلاة خاصة، وهي صلاة التّائبين والنّادمين والمستغفرين، والعازمين على عدم العودة إلى مثل ذلك الفعل في الحياة.

يستخلص من استغفار النّبي داود عليه السلام، أنه عندما وقع في خطأ، رجع إلى خالقه وتذلل له، فاستغفر اللّه سبحانه وتعالى، فغفر اللّه له.

الحادي عشر: استغفار النّبي سليمان عليه السلام:

لقد فتن اللّه النّبي سليمان عليه السلام بفتنة فاستغفر ربه. والفتنة(٢) تأتي بسبب معصية الشخص لخالقه، أو من غير سبب، فتكون الفتنة عندئذٍ ابتلاء من اللّه، لمعرفة قدرِ إيمان ذلك الإنسان، وصبره على القضاء والقدر. فَنبيُّ اللّه سليمان لما عرف أن اللّه قد ابتلاه طلب المغفرة من اللّه سبحانه وتعالى، ثم طلب منه سبحانه وتعالى أن يمنحه مُلكًا لا يؤتيه أحدًا من بعده، فاستجاب اللّه دعاءه برحمته ومِنّتِه على سليمان عليه السلام.

---

(١) هناك كلام كثير جدًّا عند أهل العلم رحمهم الله في تفسير هذه الآية. وقال القرطبي: «ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا ملكان»، الجامع لأحكام القرآن، ج١٥، ص ١٦٥، وقال ابن كثير، «يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله سبحانه وتعالى فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضًا»، وقال أيضًا: «إن الأقوال فيها جلها من الإسرائيليات». تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص٦٠.

(٢) لقد اختلف المفسرون في تعيين هذه الفتنة التي حصلت لسليمان، وبعضها للخرافات أقرب. ولمعرفة تفاصيل القصة، ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٢١، ص١٩٧؛ البغوي، معالم التنزيل، ج٧، ص ٩٤؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص ٦٨، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٣، ص١٥٥.

فيُتعلم من هذا، أن الاستغفار سبب عاجل لإجابة الدعوات. وبتعبير آخر: فإن الإنسان إذا استغفر ربّه، وغفر الله له، ثم دعا الله بعده، فإن الله سبحانه وتعالى سيجيب دعوته؛ لأن الذنوب أو المعاصي من الأسباب المانعة لاستجابة الدعوات. وفي هذا يحكي الله سبحانه وتعالى عن نبيّه سليمان عليه السلام قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص].

يلاحظ في الآية أن سليمان عليه السلام قدَّم الاستغفار، قبل أن يذكر ما يتمناه ويرجوه من الله سبحانه وتعالى، فاستجاب الله دعوته، وآتاه مُلكًا لم يكن لأحد من بعده عليه السلام. فهذا دليل جلي أن تأثير الاستغفار يرجع إلى نيّة المستغفر. والله سبحانه وتعالى أعلم، وهو أحكم الحاكمين.

الثّاني عشر: استغفارات نبيّنا محمّد عليه السلام:

تنوع استغفار النّبي محمّد ﷺ، فبعضها من أوامر الله سبحانه وتعالى له، وبعضها استغفاره للمؤمنين من أمّته، وبعضها استغفار للمسلمين بشكل عام، ويدخل فيه النّبي محمّد ﷺ ضمنًا؛ لأنّه ﷺ هو قُدوتنا، ومخرجنا من الضلال إلى الهدى بإذن الله سبحانه وتعالى، ففي هذا المقام سأكتفي بسرد النّوع الأوّل فقط.

استغفار النّبي محمّد ﷺ بأمر الله سبحانه وتعالى له: حيث أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه ورسوله محمّدًا ﷺ بالاستغفار في مواقف مختلفة، وإليكم بعضًا منها:

١. استغفار النّبي ﷺ للمنافقين: لقد بَيّنَ الله سبحانه وتعالى للنبي محمّد ﷺ، أن طلب المغفرة للمنافقين أو عدم الطلب لهم بالمغفرة سواء؛ لأنه مهما وصل عدد الطلبات، فلن يقبل الله سبحانه وتعالى هذه الطلبات، وحتى لو وصلت إلى سبعين مرة. والتعليل الإلهي هو: أنهم لم يؤمنوا بالله جل جلاله وتقدست أسماؤه، ولا برسوله محمّد ﷺ، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى

مبينًا خطورة النّفاق، وعدم قبول الاستغفار للمنافقين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ [التوبة](١).

محل الشاهد: أن اللّه ﷾ استخدم لفظ الاستغفار حتى في حق المنافقين، مع سبق علمه ﷾ أنهم لن يؤمنوا به ولا برسوله ﷺ. وإن كانت صيغة الاستغفار في هذه الآية تدل على التسوية في حقيقة الأمر؛ لكن تستأنس هاهنا. واللّه ﷾ أعلم بالصواب.

وقفات مع هذه الآية الكريمة:

الوقفة الأولى: لا يجوز استعمال مفهوم المخالفة في هذه الآية، حتى عند الجمهور القائلين بمفهوم المخالفة. بمعنى لا يجوز شرعًا أن يقول قائل: إن النّبي محمدًا ﷺ لو استغفر أكثر من سبعين مرة لاستجاب اللّه دعاءه.

والوقفة الثانية: أن الإسلام أو الإيمان باللّه ﷾ وبرسوله ﷺ شرط قوي في استجابة الدعوات، وأن الصلاة والاستغفار لغير مسلم لا يوجد عليه أي أثر إيجابي.

والوقفة الثالثة: أن «أو» الواردة في الآية الكريمة لا يفهم منها أنها للتخيير؛ لأنه لا يستقيم هاهنا أن يستعمل النهي مع الأمر والإباحة، مع قوله تعالى: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾(٢).

---

(١) لقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول. فأراد النبيٍ المزيد في الاستغفار، فبيَّنَ الله له وصرّح له بأنه حتى لو زاد على سبعين مرة فلن ينفعه شيئًا، إذن تكون آية سورة المنافقين التي تقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وجاءت هذه الآية تأكيدًا وتأييسا لباقي المنافقين. ينظر: عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التأويل بالمأثور، ج٥، ص١٢٧؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٦٤.

(٢) ينظر في ذلك: الإمام عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الدمشقي الشافعي، =

والوقفة الرابعة: شفقة النّبي ﷺ بأمّته ورحمته بهم، رجل لم يؤمن به في حال حياته وبعد مماته يستغفر له. وهذا في أعلى قمة من الرحمة بالأُمّة الإسلاميّة.

والوقفة الخامسة: لا يُفهم في الآية أن ذكر «السبعين» للتحديد، وإنما هي من أساليب العرب في كلامها، تذكر السبعين في مبالغة كلامها(١).

٢. استغفار النبي محمّد ﷺ بأمر الله ﷻ لعباد الله جميعًا: وعلى ظاهر الآية: أن الله ﷻ أمر نبيّه محمدًا ﷺ أن يخبر الناس بأنه ﷻ يغفر ذنوب العباد ويرحمهم. وفي هذا يقول الله ﷻ مُعلمًا نبيَّه ﷺ واصفًا نفسه جل شأنه بالغفران والرحمة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنى، وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه(٢)». ولَما تعرض الشيخ عبدالله بن جبرين رحمة الله عليه لهذه الآية في شرح الطحاوية قال: «فالآية الأولى فيها الرحمة، حتى لا يغلب على العاصي اليأس، والآية الثانية فيها الخوف؛ حتى لا يغلب على قاسي القلب ونحوه التساهل بالمعاصي ونحوها(٣)» وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ

= تفسير العز بن عبدالسلام تفسير القرآن، تحقيق الدكتور عبدالله بن إبراهيم الوهبي، (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ج١، ص٤٢٧؛ عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، أحكام القرآن للكيا الهراسى، ج٣، ص٧٦؛ شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٧، ص٣١٩؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٦٤؛ عبدالمجيد الشيخ عبدالباري، الروايات التفسيرية في فتح الباري، (وقف السلام الخيري، ط١، ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٦ م)، ص٨٢.

(١) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٨٨.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣، ص ٤٥٢.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٥٧؛ الشيخ عبدالله بن جبرين، شرح العقيدة الطحاوية، ص٣١٣.

لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الرعد:٦]، وأمثال هذه الآية كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، لا يتسع المقام لذكرها.

٣. قل يا محمّد اللهم اغفر لنا وارحمنا؛ لأنك أرحم الراحمين. يعني إن كان هناك من يرحم العباد، أو الأم بولدها، فإن رحمة الله سبحانه وتعالى أعلى وأعظم من ذلك كلّه؛ ولأن أرحم من أسماء التفضيل. ويقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون]. ولذا لما فسر الشيخ أبو بكر الجزائري هذه الآية قال حفظه الله ورعاه: «أي أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يدعو بهذا الدعاء: رب اغفر لي وارحمني، واغفر لسائر المؤمنين، وارحمهم أجمعين، فأنت خير الغافرين والراحمين(١)».

٤. لقد أمر الله نبيّه ﷺ أن يطلب مغفرةً من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يطلبون منه ﷺ الإذن لبعض شؤونهم، مثل: الغزوات، أو الجمعات، أو أي أمر جامع للرسول فيه غرض(٢)، إن كان الرسول ﷺ يرى ذلك، ويوافق على ذلك الإذن، ثم أعقب الله سبحانه وتعالى الأمر بالاستغفار. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾ [النور].

المشهد في الآية العظيمة، أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله بالمغفرة للمؤمنين. وأيضًا، وصف نفسه جل شأنه بغفران ورحمة عامة كما قد اختتم الله هذه الآية بصفتين عظيمتين وهما: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهاتان صفتان نكرتان، تدلان على العموم والشمول، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعًا لمن أراد.

---

(١) الشيخ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ج٣، ص٤٣.
(٢) للكيا الهراسي، أحكام القرآن للكيا الهراسي، ج٤، ص٤٩.

٥. أعلَمَ اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النّبيَّ محمّد ﷺ بإفراد اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم أعقبه مباشرةً بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالاستغفار لنفسه أوّلًا، ثم للمؤمنين، والمؤمنات ثانيًا، والنّص القرآني يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد].

يلاحظ في هذه الآية الكريمة مكانة الاستغفار عند اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرن الاستغفار بالتوحيد، وعلى لسان نبيّه ﷺ أيضًا. وكذلك يجد المتأمّل في هذه الآية أمرين عظيمين من اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: الأمر بالتوحيد، ثم الأمر بالاستغفار، وكما يقول الأصوليون رحمهم اللّه: إن الأمر يقتضي الوجوب(١) إذا لم يصرفه صارف. وهذان الأمران وإن كانا موجهين إلى الرسول ﷺ في الحقيقة والأصالة؛ لكن جميع المؤمنين والمؤمنات يدخلون فيها ضمنًا. كأن اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: يا عباد اللّه، ويا أيها الناس وعلى رأسكم محمّد، اعلموا أن اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحد لا شريك له، ثم استغفروا لذنوبكم(٢). وقد عثرت على شيء ممّا يشهد لهذا الموقف، وهو مروي أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللّه ﷺ قال: «عليكم بلا إله إلا اللّه والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت النّاس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا اللّه والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون(٣)».

ومن اللطائف القرآنيّة أن اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل؛ فلذا قد بوّب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بابًا بعنوان: العلم قبل

---

(١) ينظر: علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٤هـ)، ج٣، ص١٤٢.

(٢) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص٢٤٢؛ الجزائري، أيسر التفاسير، ج٤، ص٩١. لقد فصل الإمام القرطبي القول في تأويل هذه الآية. يرجع إليه.

(٣) أخرجه لبن عاصم في السنة (١,٩ رقم٧)، وأبو يعلي (١/١٢٣ رقم١٣٦)، = = قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٢/١١٦ رقم٥٥٦٠): موضوع، وأنظر: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التأويل بالمأثور، ج٩، ص١٩٥.

القول والعمل، ثم سرد هذه الآية المذكورة آنفًا، وغيرها من الآيات القرآنيّة(١).

٦. لقد نادى ﷾ نبيّه محمّدًا ﷺ في حالة مجيء المؤمنات إليه للبيعة أن يقبل بيعتهن؛ لكن بعد أن يتأكّد ﷺ منهن ستة أشياء: عدم الشرك بالله ﷾، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل الأولاد، وعدم البهتان، وعدم معصية الرسول في الدين، ثم أعقب الله ﷾ هذه الكبائر بالاستغفار، كما في الآية القرآنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الممتحنة]. قد يُفهم من هذه الآية أن الإنسان لو وقع في كبيرة، ثم استغفر الله ﷾ قد يغفر وقد لا يغفر له إن لم يتب، وأما إذا تاب وصدق في توبته؛ غُفر له جميع الذنوب، حتى الكفر فضلًا عن الكبائر؛ لأن الله تعالى ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:١٢٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. أو يُفهم من الآية: أن المؤمنات إذا وفَّينَ بهذه العقود، فإن الله سيغفر لهن ما سلف في الجاهلية. والله ﷾ أعلم وأحكم.

٧. ولقد أمر الله ﷾ نبيه ورسوله محمّدًا ﷺ بالتسبيح، ثم أردفه مباشرة بطلب الاستغفار، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر]. وفي هذا ورد عن عائشة ﵂ أنها قالت: «كان النبي ﷺ فيما يكثر أن يقول قبل أن يموت: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك(٢)».

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ص١١٩؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٨٨.
(٢) الكيا الهراسي، أحكام القرآن، ج٥، ص٣٥.

هنا قرن اللّه سبحانه وتعالى التسبيح بالاستغفار، فهذا يؤتي مكانًا خاصًّا للاستغفار في قلوب المؤمنين، وأيضًا لحديث عائشة أن المصطفى ﷺ كان يكثر بهما في آخر عمره. فناسب المقام الاستغفار؛ لأنَّ النّبي ﷺ عاش بعد نزول هذه السّورة-النّصر- ثمانين يومًا(١).

لطيفة: إن رسول اللّه ﷺ استأذن اللّه سبحانه وتعالى في الاستغفار لأمّه، فلم يأذن له بذلك، فدمعت عيناه رحمة لها من النار(٢).

يستخلص من استغفار النبي محمّد ﷺ أن اللّه سبحانه وتعالى قد استخدم صيغة الأمر في الاستغفار للمنافقين على لسان الرسول ﷺ، وإن كان قد سبق في علمه سبحانه وتعالى ألا يغفر لمن مات على غير الإسلام، وكذلك أمر اللّه النبي ﷺ الاستغفار لنفسه ﷺ، ثم للمؤمنين والمؤمنات، كما أنه أمر النبي محمّدًا ﷺ أن يطلب مغفرةً للذين يتخلفون عن الغزوات بعد إذنه ﷺ لهم، وكذلك قد قَرنَ الاستغفار بتوحيده سبحانه وتعالى، كما أنه قرنَ الاستغفار بالتَّسبيح، فهذه الأوامر بالاستغفار وغيرها من آي القرآن العظيم، تؤتي مكانًا عاليًا ورفيعًا للاستغفار والمستغفرين بالأسحار.

* * *

---

(١) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص٢٣٣.

(٢) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٢١. أمثال هذا الحديث كثيرة وكثيرة، لكن المقام لا يتسع للتفصيل فيه.

المطلب الثالث
الاستغفار الوارد في القرآن الكريم
من غير الأنبياء

لقد نطق القرآن الكريم بصيغ كثيرة من الاستغفار، بعضها على ألسن الأنبياء، وبعضها من أدعية الملائكة للمؤمنين، وصيغ أخرى من المسلمين أنفسهم، وقد استعرضت شيئًا من استغفار الأنبياء والمرسلين فيما سلف، وهنا سأكتفي بسرد بعض الآيات القرآنية بخصوص هذا المطلب الثالث إن شاء اللّه سبحانه وتعالى(١):

لقد أمر اللّه سبحانه وتعالى حجيج بيته الحرام، أن يستغفروا اللّه سبحانه وتعالى في عرفات؛ لأنه سبحانه وتعالى غفور رحيم، كما سبقت الإشارة على أن النكرة تفيد العموم والشمول، معنى ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى يغفر ذنوب حجيج بيته المحرم جميعًا؛ ولأن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، ولا يتصور الجنة لمن عليه الذنوب، وإن دخل النار، فلن يخلد فيها بإذن اللّه سبحانه وتعالى. والآية القرآنية خير دليل على استغفار الحجاج، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البقرة].

ولقد أشار المولى سبحانه وتعالى إلى أُمنيات المؤمنين به سبحانه وتعالى، والمهاجرين في سبيل اللّه والمجاهدين في سبيل إعلاء كلمته، أنهم يتوقعون رحمة ربهم بعد هذه

---

(١) سأوجز الكلام في هذا المطلب مراعاة لضوابط المؤتمر الموقر في تحديد عدد الصفحات المسموحة في الكتابة.

الأعمال الخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى غفور للذنوب ورحيم بالعباد. ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة]، فحُق لهذه الأصناف الثلاثة أن يرجوا رحمة الله ومغفرته؛ لأن البشر معرضون للخطأ دومًا، وقد يخلص المؤمن نيته لله سبحانه وتعالى من بدء العمل؛ لكن قد يوسّوس عليه الشّيطان، فيقع في بعض المخالفات الشرعيّة، وكذلك المهاجر والمجاهد. والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

ولقد دعا المؤمنون خالقهم سبحانه وتعالى بدعوات طيبات، ومنها: عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ، وتكليف بما لا يطاق، والنصرة على الأعداء الغاصبين الظالمين. وعلى إثر هذه الأدعية سألوا الله سبحانه وتعالى العفو والمغفرة والرحمة، فهذا يوحي إلى أن الإنسان مهما بلغت درجته في العبادة لا يأمن على نفسه؛ لأن الحي لا يأمن على نفسه. ويقول الله سبحانه وتعالى مخبرًا عن دعاء الصالحين والراجيين لرحمة الله ومغفرته: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة:٢١٨].

وقد أعلن المؤمنون إيمانهم بالله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من ذلك كلّه طلبوا مغفرةً من الله لذنوبهم والوقاية من النيران، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾ [آل عمران]. ثم نبأنا الله شيئًا من دأبهم وسماتهم أنهم: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران]، فهذه الآية تُعلمنا بأن الاستغفار وإن كان مناسبًا في أي وقت؛ لكن من أنسب الأوقات أن يكون في وقت السّحر؛ لأنه وقت من أوقات الإجابة، ويبيت هؤلاء مع ذكر الله ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات]. والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

وقد اشترط الله ﷾ في حبّه اتباعَ نبيّه ورسوله محمّد ﷺ، كما في ظاهر الآية، بمعنى أن من كان يحبُّ الله حقًّا فعليه حبّ الرسول ﷺ، ولهذا من ادعى أنه يحب الله سبحانه ولا يحب الرسول ﷺ أو لا يحب بعض الأحاديث الثابتة عنه ﷺ فليس يحب الله فإنما هذا حب الكاذبين. ويقول الله ﷾ مخبرًا عن هذا الحب المقيد والمشروط: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران]. فكان جزاء هذا الحب أن الله ﷾ سيغفر لمن تحقق فيه هذا الشرط؛ لأن الله غفور ورحيم. وحقيقة، هذا موقفٌ رهيبٌ لمن يتأمّل معان القرآن العظيم ويتدبّرها.

ويُربينا الله ﷾ على حسن الظن به ﷻ؛ لأنَّه خَلَقنا، وهو أعلم بنا من أنفسنا، يعلم أننا سنقع في السيئات والظلم؛ فلذلك بشرنا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء]. فهذا علاج رباني لأي واحد من البشر اقترف سوءًا أو ظلم نفسه، فعليه أن يفزع إلى طلب المغفرة من الله ﷾، وسيغفر الله له؛ لأن الله ﷾ يغفر الذنوب، ويرحم العباد بعد ظلمهم.

ولقد بيَّنَ الله فضيلة صحبة النّبي ﷺ وأهميّة الاستغفار في مواطن كثيرة، وخاصة في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال]، وقد عبّر الله عن اسم الفاعل في الآية ﴿مُعَذِّبَهُمۡ﴾؛ لأن الفاعل أقوى من المفعول(1). فإذا كان سبب نجاة المذنب من العذاب وعقاب الله هو صحبة النّبي ﷺ، فَنعمت الصحبة هذه، وكذلك عظمت مكانة الاستغفار عند الله ﷾؛ حيث إنّه ﷾ قد علَّق وربط عدم التعذيب بهذين الشيئين العظيمين. وهناك أحاديث وآثار كثيرة بخصوص هذا الباب، لكن المقام لا يسعها. ومنها ما يلي: قال علي بن أبي

---

(١) عبدالرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد، كتاب أسرار العربية، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٥م)، ص٨٨؛ أبو الحسن محمد بن عبدالله الوراق، علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٠ ط١، ١٩٩٩م)، ص٢٦٩.

طالب ﵁: «ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه». وقال أيضًا: «العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار⁽¹⁾». وقال قتادة ﵀: «القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار⁽²⁾».

وقد قدم اللّه مغفرته ورحمته، قبل ذكر السبب في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨]. فهذا دليل جلي أن رحمة اللّه ومغفرته وسعت السماوات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وهناك فريقان متعاكسان في يوم التغابن، فريق في السعير، وآخر في الجنان، ففريق النّار أخذوا يعتذرون إلى اللّه ﷻ بظلمهم في الدنيا، ويطلبون العودة إلى الدنيا للعمل الصالح، وبالمقابل فإن فريق الجنة آمنوا باللّه في الدنيا وعملوا الصالحات، ثم طلبوا رحمة اللّه ومغفرته في الدارين، فهل يستويان، فالجواب: لا بد أن يكون بلا، يعني لا يستوي الفريقان. وفي هذا يقول اللّه ﷻ عنهما: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩)﴾ [المؤمنون].

ولقد برّأ اللّه ﷻ أُمّنَا أم المؤمنين عائشة ﵂ عن الفرية والتهمة التي ألقاها الشيطان في قلوب بعض المسلمين⁽³⁾، ولما تحقق وتأكّد أبو بكر من

---

(١) إسماعيل البروسوي، تفسير روح البيان، (بيروت لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م)، ١٠/٢٠٥-٢٠٦.

(٢) صالح أحمد الشامي، المهذب من إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، (دمشق: دار القلم، د. ط، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص٢٦٥.

(٣) لقد ذكر ابن سيرين ﵀ أن يتيمين كانا في بيت أبي بكر ﵁، أحدهما مسطح بن أثاثة وكان من الذين خاضوا في الإفك. ينظر: الكليا الهراسى، أحكام القرآن، ج، ص١٠٨؛ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت)، ج٥، ص٤٨٥.

تبرئة ابنته ﵂ حلف ألا يحسن إلى مسطح بن أثاثة ابن خالته بعدما خاض مع الخائضين في عرض إبنته، فأنزل اللّه آية مبينًا ومخيرًا بين أمرين، الخيار الأوّل: إما أن يواصل إحسانه إلى مسطح وينفق عليه، كما كان يفعله من قبل، والخيار الثاني: إما أن يتوقف عن الإحسان إليه، ولا يغفر اللّه له. وطبعًا فَضَّلَ عفو اللّه ومغفرته على انقطاعه من كان تحت رعايته؛ لذا قال اللّه ﷾ ناهيًا ومرغبًا في طلب المغفرة والعفو من المقاطعة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور]. وعند ذلك قال أبو بكر ﵁: واللّه إني لأحب أن يغفر اللّه لي⁽¹⁾، فتقهقر عن يمينه وحنث، وردّ نفقة مسطح عليه. ويلاحظ هنا أن اللّه ﷾ لما خيّرَ أبا بكر الصديق ﵁ بين الأمرين، اختار مغفرة اللّه ورحمته؛ لأنه يعرف معنى الاستغفار حقّ المعرفة، ويعرف أن اللّه ﷾ لا يخلف الميعاد.

وهناك بشرى ربانية لنبيّه ورسوله محمّد بن عبداللّه ﷺ ولأمّته من بعده؛ حيث إنه ﷾ قد بيّنَ أن سعة مغفرته ورحمته للمستغفرين، والآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة جدًّا، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر]. وهذا غفران شامل وعام. وفي آيات أُخر بيّنَ اللّه ﷾ أن رحمته واسعة، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وفي آي أخر مع أن سعة رحمته ومغفرته، ولكنَّه شديد العقاب⁽²⁾. كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

---

(١) ينظر: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٨، ص٣٠٨؛ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م)، ج٧، ص٨١؛ شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٣، ص٣٨٣؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ج١، ص٢٦٨٤.

(٢) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ج٣، ص٣١٦. وهو من المعاصرين الذين فصلوا في هذا الشيء حسب علم الباحث.

لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، ولا أطيل النّفس في هذه الجزئيّة، حتى لا أخرج عن مقصود الورقة.

فإن حملة العرش الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويلتزمون بما يؤمرون، فإنهم يدعون للمؤمنين المخلصين لله سبحانه وتعالى بالمغفرة والرحمة والنجاة من النيران. وعلة هذا الطلب، لأن رحمة الله سبحانه وتعالى واسعة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر]. فهذا، شرف على شرف، شرف دعوة الملائكة للمؤمنين بالاستغفار والرحمة، وشرف مكانة الاستغفار عند الملائكة المقربين.

وفي موضع آخر، أرشد الله سبحانه وتعالى المؤمنين على الداء والدواء، ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، فإن بعض الأزواج، والأولاد عدوٌّ لأولياء أمورهم؛ لكن ما أنزل الله داءً إلا وأنزل معه دواءً، فإن دواء هذه الأمراض الأُسرية هو العفو والصفح والغفران عمّا سلف وكان، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التغابن]، فقَابل الله هذا العمل الطيب بمغفرته ورحمته لذلك الشخص، الذي قال عندما سمع هذه الآية: سمعًا وطاعةً. ولا تساوي مغفرة الله ورحمته بعفو الإنسان وغفرانه عن غيره من البشر. فهنيئًا لمن غفر الله له، ورحمه برحمته الواسعة.

وخلاصة الأمر أن المؤمنين من أُمّة محمّد عليه السلام استغفروا الله في مواقف مخلتفة، على صعيد عرفات بعد أداء أعظم العبادات التي هي عبادة الحج، وكذلك بعد الهجرة والغزوات، واستغفرت الملائكة للمؤمنين كذلك، وقد بشّر الله المؤمنين التائبين أنه سبحانه وتعالى يغفر لهم الذنوب جميعًا،

كما أن الله سبحانه وتعالى أرشدنا إلى داء ودواء، والداء هو عدواة بعض الأولاد والأزواج، والدواء هو العفو والصفح عنهم، وقابل الله هذا العمل بغفرانه هو سبحانه وتعالى لذلك الشخص.

⁂

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أحمده حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا أن مَنَّ عليَّ بتناول بعض جزئيات هذا الموضوع، وإن كنت لم أُوفِّه حقه الحقيقي لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه. فعليه، حاولت قدر الإمكان والاستطاعة أن أتناول بعض هذا الموضوع الممتع. وأقول بكل صراحة وحقيقة: إنني سعيد بهذا الموضوع، وكيف لا؟ لأن المعيشة مع كتاب اللّه سبحانه وتعالى من أجل العبادات وأعظم القربات. وها أنا الآن أضع رحالي في آخر محطة من محطات هذه الورقة، ولأودعها بذكر أهمّ النتائج، وهي على النّحو الآتي:

أهمُّ نتائج البحث:

١. لقد تبيّنَ لي في هذه الورقة أن الاستغفار قد يطلق ويراد به الستر والتغطية والتجاوز عن السيئات.

٢. الرحمة والشفقة والرأفة واللطف كلمات مترادفات في لسان العرب.

٣. الاستغفار أمر رباني، لقد أمر به سبحانه وتعالى الأنبياء والمرسلين من لدن أوّل الأنبياء إلى آخر الأنبياء والمرسلين، وكذلك أمر الشارع الحكيم سائر المسلمين والمسلمات بالاستغفار لقضاء الحوائج، فهذا دليل واضح على أهمية الاستغفار في شرائع اللّه سبحانه وتعالى.

٤. لقد عرفت من خلال هذا البحث أن ملازمة الاستغفار تعالج جميع المعاناة منها على سبيل المثال: مشكلة عقم النساء، وقلة الأرزاق، والغيث...، كما أمر به النّبي نوح قومه، والنّبي شعيب أمته، وغيرهما من الأنبياء.

٥. الاستغفار سبب في تأخير عمر الإنسان، كما قال اللّه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [نوح].

٦. الاستغفار مع جلالة قدره عند اللّه ﷾ وفي قلوب المؤمنين؛ لكنه غير مقبول لغير المسلمين والمشركين، كما أن الاستغفار لا ينفع مع من توفي على غير الدين الإسلامي.

٧. الاستغفار يؤثر حسب نية المستغفر، أي كل ما يهم الإنسان ويتمناه في دنياه وآخرته، سيعالجه الاستغفار بإذن اللّه الأحد الصمد.

ولا يفوتني في هذه اللحظة إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للمملكة العربية السّعوديّة على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص لجامعة الملك سعود على تنظيم هذا اللقاء العلمي القيم، وجزاكم اللّه خير ما يجزي به عباده المحسنين المخلصين. واللّه ﷾ أرجو أن يتقبل مني صالح أعمالي، ويتجاوز عن أخطائي وزلاتي.

هذا، وصلى اللّه على محمّد وعلى آله وصحبه وعلى آله بيته وعلى كل من سار على نهجه إلى يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم، وإن كنت قد وُفقتُ في هذا العمل فمن اللّه ﷾، وإن حصل عكس ذلك، فمني ومن نزغ الشّيطان، وأستغفر اللّه تعالى وأتوب إليه.

فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد الفقي، (بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٢. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

٤. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).

٥. ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، سنن ابن ماجه، محمد فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار الفكر، د. ط، د. ت).

٦. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط١، د. ت).

٧. أبو الحسن، محمد بن عبدالله الوراق، علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، (الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).

٨. أبو سعيد، عبدالرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيدالله، كتاب أسرار العربية، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٥م).

٩. إسماعيل البروسوي، تفسير روح البيان، (بيروت لبنان: دار إحياء التراث العربي، د. ط، ١٤٢١هـ-٢٠٠١، م).

١٠. الآمدي، علي بن محمد أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٤هـ).

١١. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

١٢. الجرجاني، السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م).

١٣. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د. ط، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

١٤. الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (دار الهداية، د. ط، د. ت).

١٥. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

١٦. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت).

١٧. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

١٨. الشامي، صالح أحمد، المهذب من إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، (دمشق: دار القلم، د. ط، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

١٩. عبدالباري، عبدالمجيد الشيخ، الروايات التفسيرية في فتح الباري، (وقف السلام الخيري، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م).

٢٠. عبدالمنعم محمود، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، (دار الفضيلة د. ط، د. ت).

٢١. عز الدين، عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الدمشقي الشافعي، تفسير العز بن عبدالسلام تفسير القرآن، تحقيق: الدكتور عبدالله ابن إبراهيم الوهبي، (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤١٦هـ١٩٩٦م).

٢٢. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ١٩٦٤م).

٢٣. النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).

* * *